الفصل الرابع عشر

التراث والبقاء

إن أعظم فائدة للسفر هي رؤية سواحل البحر الأبيض المتوسط، فلقد نشأت حول هذه السواحل أربع إمبراطوريات ظهرت في العالم. وهي الإمبراطورية الآشورية والفارسية واليونانية والرومانية، فلقد أتت لنا جميع ديانتنا وجميع شرائعنا تقريباً وجميع فنوننا وكل ما يضعنا في مرتبة حضارية تعلو على الوحوش، كل هذه قد أتت من منطقة البحر الأبيض المتوسط.

بوزويل – حياة جونسون الخميس ١١ نيسان ١٧٧٦.

لقد كان هناك حين من الدهر ليس بالقديم عندما كان بالإمكان كتابة كل ما هو معروف من تاريخ منطقة ما بين النهرين في صفحات قليلة من التاريخ المتميز والخرافات. والآن وبعد أن أصبح لدينا معرفة من الدرجة الأولى حول تلك الحضارة فمن الممكن أن نرى كم حضارتنا مدينة لمنطقة ما بين النهرين. فلقد انتقلت لنا الأفكار السومرية البابلية والتقنيات من خلال عدة مصادر وقد وصلت إلينا من خلال التوراة بعض الأساطير القديمة فضلاً عن الأفكار المتصلة بالسحر وعمل السحرة، بينما وصلت إلينا أساطير يونانية. ومن خلال بلاد اليونان وروما وبيزنطة والعرب أتت إلينا العناصر التي أثرت في أنظمة الموازين لدينا وكذلك التقاويم وكذلك وصل لنا علم التنجيم من خلال نفس القنوات، وفوق الجميع نجد أن علم الفلك وعدة مفاهيم فلكية أخرى هي من التراث المباشر من منطقة ما بين النهرين. وتقع العناصر الآتية من منطقة ما بين النهرين في صلب معرفتنا القانونية والتجارية بينما نجد أن المواصلات البرية الطويلة كانت لها جذورها في منطقة ما بين

النهرين. هذا وإن الاهتمام بمحو الأمية له ما يقابله في منطقة ما بين النهرين، فإذا تعلم العالم الحديث شيئاً من روما حول الإدارة وحفظ النظام فإن هناك أيضاً نوعاً من الديون التي في أعناقنا للشرق الأدنى.

عناصر منطقة ما بين النهرين في التوراة

إنه لا مجال للشك أن بعض القصص المذكورة في التوراة كقصة الخلق وقصة الطوفان لها علاقة وأوجه شبه بقصة الطوفان في بابل أو سومر والتي تحدثنا عنها سابقاً في هذا الكتاب. وهناك ذكر السحر وأعمال السحرة في العهد القديم من التوراة ولا يعني هذا أن هذه المعتقدات قد أتت من منطقة ما بين النهرين نظراً لأن أعمال السحر ليست حكراً على شعب واحد من شعوب البشرية، ومع ذلك فإن تفاصيل مثل هذه المراجع تشير بقوة إلى نفوذ منطقة ما بين النهرين المباشر. وعدا عن هذا ليس هناك من سبب يدعونا للافتراض أنه في المجتمعات غير العلمية، كانت الشياطين تعتبر شبيهة بالوحوش الحقيقية.

إننا نجد فصلين من فصول التوراة لهما علاقة بالأفكار الدينية في منطقة ما بين النهرين، وهما الفصل عن ناحوم ونشيد الإنشاد وهما يشبهان طقوس تموز في بابل ويقول العالم الاسكندنافي أ. هالدار أن الفصل عن ناحوم يشبه حفلات السباق التي كانت تحدث في عيد رأس السنة في بابل ويقول كاتب هذا الكتاب أن نشيد الإنشاد في التوراة ذو علاقة أوضح بالطقوس البابلية. وهذا وإن الاعتقاد بتلبّس الشياطين الذي يعود إلى وجهة النظر البابلية حول نظام العالم. هذا الاعتقاد لا يزال سائداً بين بعض الطبقات الثقافية والذكية في هذا العالم.

وهناك بعض الحالات يعجز فيها الطب عندما لا يستطيع الأطباء اكتشاف أسباب الاضطرابات الجسمانية، عندها يعمد الكاهن إلى طلب موافقة المطران الذي يستطيع الحصول على نصائح الخبراء، فإذا حصلت الموافقة فإنه من السهل طرد الروح الشريرة. ولكن ربما دخلت هذه الروح في الكاهن ولذلك فقد كانوا يضعون كاهنين اثنين قد مارسا بعض الاستعدادات الروحانية. وهناك بعض

القصص في التوراة التي تشير إلى وجود الشياطين التي تطوف حول العالم، وهذه القصص مستوحاة من النفوذ البابلي القوي الذي تعرّض له اليهود أثناء فترة النفي إلى بابل. هذا ولقد لعبت فكرة الشياطين التي كانت سائدة عند الساميين دوراً طفيفاً في الأفكار العبرية قبل عملية النفي.

ومع أن العهد القديم في التوراة لا يشير إلا بشكل قليل إلى دخول الشياطين في الجسم البشري، إلا أن هناك إشارات في النصوص العبرية إلى عمل السحر أكثر من المعتاد.

وهناك عدد لا بأس به من الأمثلة الموجودة في النصوص العبرية للعهد القديم وهي تستعمل نفس الكلمات الموجودة في النصوص الأكادية السحرية. وكلها تظهر أوجه الشبه الوثيقة في التفكير مع السحر البابلي، الذي عمل بشكل غير مباشر في العالم الغربي. ففي الدين العبري كان هناك اعتقاد تقليدي بالسحر وكانت تفاصيل هذه المعتقدات تشير إلى أنها قد تشكلت من بعض المقاطع من الأشكال المشار إليها، وهكذا فإن الاتصال مع اليهود الذي كان متأثراً بمنطقة ما بين النهرين بطريقة أو بأخرى، ما هو إلا قناة جديدة من خلالها تسربت الأفكار الدينية التي لها جذورها في أوروبا في العصور الوسطى وعصر الإصلاح الديني، وقد أصبح لها الشكل الخاص الذي اتخذته أخيراً.

هناك أحد المفاهيم الدينية التي وصلت إلينا عن طريق التقاليد المستمرة من الشرق الأدنى وهي فكرة التتويج. ففي الشرق الأدنى القديم لم يكن التاج مجرد رمز بل كان ذا قوة سحرية وكذلك كان الزيت الذي دهن الملوك به أنفسهم. ولقد بقيت هذه المفاهيم واضحة المعالم في قضية التتويج المستعملة في إنكلترا في الوقت الحاضر.

علم التنجيم وعلم الفلك والتعداد وتقسيم الوقت

هناك مظهر واحد من مظاهر الخرافات البابلية وصل إلينا من خلال الرومان واليونان، وهو علم التنجيم الذي يصعب محوه من الحضارة في الوقت الحاضر، فقد كانت التنبؤات تحدث من عدة أنواع من الحوادث في بابل وهناك نوعان رئيسيان من هذه التنبؤات، إذ منها ما يؤثر على أفراد معينين وهي منتزعة من الحوادث مثل حادثة سقوط ثعبان من سقف البيت المصنوع من التراب على فراش أحدهم. ومن جهة أخرى، كانت بعض التنبؤات لا تختص بشخص معين بل بالبلاد بأجمعها أو ممثلها الطقوسي وهو الملك. وهذا النوع من التنبؤات يدعى بالقانوني أو الشرعي وقد اعتبر التنجيم من هذه الفئة. وعلى ضوء اللاهوت البابلي العالمي كان من الواضح أن الحوادث التي تحدث في السماء أو الأرض كانت تروى. وتذكر ملحمة الخلق أن الأرض هي نظير السماء، ولذلك فإن أي حادث يحدث في السماء فإن له ما يشابهه على الأرض.

والخطوة الأخيرة تجاه التنجيم والبروج هي أن هذه الخطوة من الصعب إتمامها حتى تخترع بعض التقنيات التي تمكن الظواهر السماوية من أن تعود لفرد معين من الأفراد. وهناك طريقة لعمل هذا وهي أن نلاحظ أي من الكواكب كانت ظاهرة وأي كانت مختفية عند ولادة هذا الشخص. إذ هناك نص من النصوص المسمارية يذكر أن هذا كان معروفاً قبل القرن الخامس ق.م. ومع ذلك فإن من يعتبر هذه الإجراءات شكلاً منظماً يجعلها في مصاف العلوم عليه أن ينتظر اختراع فنون البروج، فالبروج لم تخترع لأغراض تنجيمية، ولكن وبعد أن عرفت، ساد استعمالها للتنبؤ بالمستقبل على أساس تحرّك الأجرام السماوية ثم إلى التنبؤ بمستقبل الإنسان بالنسبة لوضع الكواكب في البروج عند مولده. وإن التفاصيل التي تذكر كيف حدثت هذه الخطوة لا تزال غامضة ولقد كثر اللغط فيما إذا كان هذا التطور قد حدث في بلاد اليونان أم في مصر أم في منطقة ما بين النهرين. إذ إنه كان في كل بلد من هذه البلدان أبطالها ولكن هناك اعتبارين يفضلان بابل. إذ هناك الاعتبار النظري وهو أن الفكرة إنما ظهرت في الميليو Miliew حيث كانت الأجرام

السماوية تعتبر بأنها آلهة تؤثر على حياة البشرية، وهناك الحقيقة العملية التي مفادها أن كثيراً من أمثلة البروج قد عرفت في بابل قبل اليونان أو مصر. ويشير العالم ب. ل. فان دير ويردين Waerden. إن هناك مفهومين ينبغي تمييزهما عند مناقشة أصل البروج وأحدهما هو حزام البروج أي الحزام المؤلف من ١٢ درجة تتحرك فيه الشمس والقمر والنجوم، وتقع مجموعة النجوم أو إشارات البروج ضمن هذا الحزام. وهناك عدد من الأسماء المذكورة والتي تشبه الأسماء والتي لا تزال مستعملة للدلالة على إشارات البروج. مثلاً الثور والتوأم (جيميني) والأسد والسرطان والقوس والجدي. وأما المفاهيم الأخرى، فكانت حول الخسوف والكسوف التي يعرفها فان دير ويردن أنها خط واقع في منتصف حزام البروج وخلال خسوف القمر وكسوف الشمس وهي مقسمة إلى اثنتي عشرة إشارة بروجية كل منها يبلغ ثلاثين درجة. ويشير فان دير وردن أن هذا كان اختراعاً بابلياً استخدم عام ٤١٩ق.م في نص Mul-Ap IN مول أب إن من اثني عشر شهراً وكل شهر مؤلف من ثلاثين يوماً وعن طريق استخدام اثنتي عشرة إشارة بروجية، فإن الشمس تنتقل ما بين هذه الإشارات مدة شهر مخطط.

لا نجد هناك منطقة البروج في بلاد اليونان وبالنسبة لأوراق البردى وأدب التنجيم في الفترة الرومانية، فإن أقدم ذكر لها هو عام ٦٢ق.م. وإن البروج في مصر تعود إلى النصف الأول من القرن الأول ق.م. وهناك نص من النصوص المسمارية يذكر أن طفلاً قد وُلد بتاريخ ٢٩ نيسان عام ٤١٠ق.م بينما هناك أربعة أمثلة أخرى من القرن الثالث ق.م.

وفي عام ٤٨ق.م في ليلة الثالث والعشرين ولد الطفل وفي ذلك الوقت كانت الشمس في برج الحمل ١١.٣٠° والقمر كان في برج الدلو، وكان المشتري في أول برج الأسد. وكانت الزهرة مع الشمس وكانا سائرين في برج السرطان والمريخ في نهاية برج السرطان، فإن هذا الطفل سوف يكون مفتقراً إلى المال ولسوف لا يرضي طعامه حالة الجوع. وإن الثروة التي جمعها في شبابه سوف لا تبقى وبعد ستة وثلاثين عاماً سوف تصيبه الثروة والمال وسوف يطول عمره.

إن فكرة تعيين الأسبوع تعود إلى تأثير منطقة ما بين النهرين. ومنذ فترة قديمة كانت الطقوس الدينية تبدأ في اليوم الأول القمري وكذلك في اليوم الخامس عشر عند ظهور البدر وفي يوم المحاق يوم اختفاء القمر وفيما بعد اعتبرت أيام نصف الشهر القمري أيام أعياد. وهناك نظرية مختلفة حول أصل الأسبوع العبري وهذا يُظهر أن الدين الموسوي كان تحت نفوذ الكنعانيين الذين كانوا إحدى القبائل السامية التي كانت لديها موانع ضد استعمال النار في اليوم السابع.

إنه ليس بالنسبة إلى التقويم فحسب، بل بالنسبة إلى طريقة الأرقام وبصورة خاصة عند قياس الزمن، فإن الإجراءات في منقطة ما بين النهرين تركت آثارها التي لا تزال ظاهرة في حضارتنا. ولا يزال النظام السومري الستيني ظاهراً في تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وتقسيم الساعة إلى ستين دقيقة و٣٦٠٠ ثانية، وهذا ما يمثل بعض التقاليد المستمرة التي وصلت إلينا من خلال الفلكيين القدماء. وإن عدداً يكتب باللغة السومرية هكذا:

إنما يشير إلى الرقم ستين مضروباً بثلاثة +٢ ويبدو أن المبدأ الخاص بتدوين القيم البابلية المكانية لم يفقد بل إنه قد انتقل إلى علم التنجيم الهندي الذي دخل إلى الحضارة الإسلامية وبعدها إلى الحضارة الأوروبية بما يدعى الأرقام العربية التي تصبح العدد ٣٢ يعني عشرة مضروبة بثلاثة +٢.

هذا وإن تقسيم النهار إلى ساعات يرجع أيضاً إلى منطقة ما بين النهرين مما دعا إلى إلغاء النفوذ المصري والبابلي. فقد استعمل علماء الفلك المصريون والبابليون أنظمة مختلفة لتقسيم النهار فقد قسم المصريون الفترة من شروق الشمس إلى غروبها إلى اثني عشر جزءاً. وهكذا فقد جعلوا على ساعات تعتمد أطوالها على الفصول. أما شعب ما بين النهرين فقد قام بنفس العمل في الحياة العادية، بحيث أن قسموا الليل ابتداءً من غروب الشمس إلى شروقها إلى ثلاث ورديات كل منها يؤلف (بيرو) واحداً ويختلف قيمة (البيرو) حسب الفصول. أما علماء الفلك البابليون فقد قسموا اليوم بكامله نهاراً وليلاً إلى أقسام ثانوية ذات أطوال متساوية. وفي فترات متأخرة تبنى الهيلينيون النظام والوسائل البابلية عند تقسيم الليل والنهار إلى أقسام متساوية

ولكنهم قسموا (البيرو) إلى أربعة وعشرين قسماً ثانوياً – من النهار إلى الليل وذلك كما هو الحال في النظام المصري ولكن الأطوال كانت متساوية وهكذا ظهرت فكرة اليوم المؤلف من ٢٤ ساعة.

المترادفات

لقد ظهر أن المؤلفين الكلاسيكيين قد أكدوا أن الحضارة الحديثة مدينة لمصر أكثر منها لبابل ومع ذلك فإن معرفة عدد العقاقير الطبية (من أصل نباتي ومعدني) قد أتت من مصادر منطقة ما بين النهرين، نظراً لأن كثيراً من الأسماء اليونانية قد استعيرت من الأكادية، ومن هذه الأسماء المندرجة تحت هذه الفئة ما يلي:

English	Greek	Akkadian
Carob	Charrouba	Kharuba
Crocus	Knokos	Kurkana
Commin	Kuminum	Kamanu
Gypsum	Gypsas	Gassu
Hyssop	Hussopa	Zupu
Ladanum	Ledanon	Ladanu
Myrrh	Murra	Murru
Naphtha	Naphtos	Naptu
Soffran	-	Azupiranu

ومن بين الكلمات من فئات أخرى قد أتت من اللغة الأكادية أو السومرية، إلا أننا لا نستطيع استنتاج أمثلة كثيرة من اللغة الإنكليزية أو من اللغات الحديثة الأخرى. وهناك محاولات جادة لإيجاد بعض الكلمات السومرية في أماكن غير منتظرة وخصوصاً في اللغة الهنغارية، ولكن من الممكن تجاهل ذلك نظراً لأنها تعتمد على معرفة غير كافية للغة السومرية. أو الفهم الخاطئ للتطورات التاريخية للغة، إذا قورنت معها، وفيما يلي نذكر الكلمات التي لها علاقة بمنطقة ما بين النهرين بما يلي:

الكحول: من اللغة العربية الكحل ومن اللغة الأكادية Guhlu وقد كان معنى الكحل أولاً المسحوق المطحون جيداً وبشكل ناعم وبعد ذلك أطلق على المواد المتطايرة ثم على المشروبات الروحية.

الكالي Alkali وتأتي من خلال اللغة العربية من اللغة الأكدية Kalati أي الأشياء المحروقة وذلك بالإشارة إلى رماد النباتات التي كانت تحرق لعمل البوتاس.

كلمة Cane قد أتت من الكلمة الأكادية Kanu بمعنى القصبة وتأتي Canon من نفس الاشتقاق تعني عصا القياس أو النموذج.

كلمة Chrusos اليونانية بمعنى الذهب قد أتت من الكلمة الأكادية Khurasu بمعنى الذهب ومن الممكن أن تكون الكلمتان اليونانية والأكدية ذات أصل واحد ليس بالأصل السامي ولا الهندوأوروبي. كلمة Dargoman قد أتت من خلال اللغة العربية والآرامية من الكلمة الأكادية Targumanu. كلمة Horn (باللاتيني Cornu واليوناني Keras) وربما كانت متصلة من بعيد بالكلمة الأكادية Karnu التي لها نفس المعنى.

كلمة Jasper مشتقة من خلال الكلمة اليونانية Laspes من الكلمة الأكادية Iashpa.

كلمة Meguin الفرنسية Mischinos الإيطالية التي تعني فقير أو وضيع هي مأخوذة من كلمة عربية (المسكين) التي هي بالآكادية Mushkin بمعنى من طبقة دنيا.

كلمة Mina تأتي من اللغة السومرية Mana وهي تمثل كلمة سامية مؤسسة على الفعل Manu بمعنى يَعد وقد أتت من الأكادية.

كلمة Plinet قد أتت من الكلمة اليونانية Plinthas بمعنى طوبة أو قرميد وهي مشتقة من اللغة الأكدية Libittu وتعني الطوب المقولب.

كلمة Rachel قد أتت من العبرية Rahel أي ابن النعجة وهي تعود إلى الكلمة السومرية Lahra وهي اسم أحد الآلهة الذي له علاقة بالغنم.

كلمة شيكل تأتي من خلال اللغة العبرية من الكلمة الأكادية Shiklu.

وهناك نوعان من الفواكه في أوروبا قد اشتقت أسماؤها من منطقة ما بين النهرين وهذا يدل انها قد وصلت إلى أوروبا من هذه المنطقة وأحدها هو المشمش ويدعى باللاتينية Armeniaca مما يدل أن هذه الفاكهة قد أتت من أرمينيا. ولهذا ونظراً لأن المشمش كان معروفاً لدى الآشوريين والبابليين باسم Armuna وهذا يدل أن الاسم اللاتيني قد أخذ من الاسم الأكادي وأن الفاكهة والشجرة قد وصلت إلى أوروبا عن طريق منطقة ما بين النهرين. والشجرة الأخرى هي شجرة الكرز وكذلك الفستق والتين والتفاح والرمان والسفرجل والحمضيات والليمون والتوت وتأتي الشواهد من النصوص ومن البقايا التي وجدت بعد بداية أعمال الحفر، وهذا يدل بأنه كثيراً من الملوك البابليين والآشوريين قد اهتموا بالنباتات والزراعة في مزارعهم وأن الكرز هو الشجرة الوحيدة التي يظهر أن اسمها قد اشتق من الأكادية وهو Karsho وهو يشير إلى الأصناف ذات الروائح العطرة كالكرز التي صادفها الآشوريون في جبال كردستان.

فن المعمار

يمثل العمود الأيوني تراثاً معمارياً وصل من خلال بلاد اليونان وهو نوع من الأعمدة التي تمتاز بوجود تاج في أعلاه وهذا التاج محاط بزينة حلزونية جانبية. ولقد استعمل هذا النوع في الفترة Protolitarate كرموز دينية في بابل وكان عبارة عن حزمة من القصب الطويل والمرتبط بعضه ببعض وقد استعمل بشكل عمود في الكوخ الطقوسي. ولا تزال مثل هذه الوسائل مستعملة في صنع الأكواخ بين سكان المستنقعات من عرب العراق والجنوب.

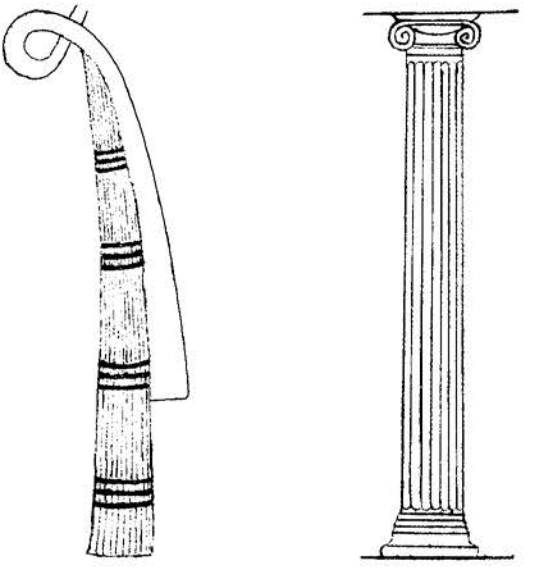

عمود إيواني (جهة اليمين) وسابقه (سلفهُ)

الرموز في الفنون الدينية

نلاحظ وجود تأثير ونفوذ الفن الذي كان موجوداً في منطقة ما بين النهرين في الفنون المسيحية والإسلامية. مع أننا لا نستطيع إثبات ذلك وكلما كان الرمز بسيطاً كلما أصبح من الصعب برهنة علاقته بالفنون الأخرى. مثلاً هناك قضية الصليب والهلال فقد كان كلاهما معروفين تماماً كرموز دينية في منطقة ما بين النهرين. ومع ذلك فإن الصليب اليوناني البسيط قد ظهر بشكل مستعمل في مناسبات عدة. وأما بالنسبة للصليب المالطي الأنيق فإن القضية مختلفة وإن الحقيقة التي مفادها أنه كان مستعملاً كرمز ديني في جمدت نصر في آشور في فترة عام ٢٩٠٠ق.م هي قضية معروفة وليس من الممكن اعتبارها مجرد مصادفة. ومن المؤكد أن الصليب بشكله المالطي (انظر اللوحة ٢٧) كان رمزاً دينياً قديماً انتقل إلى المسيحية وهناك رمزان يهوديان يعودان إلى الفنون الدينية في منطقة ما بين النهرين

القديمة، وهما المينوراة أي المصباح الطقوسي أو درع داود وهذان قد وجدا في الأختام الآشورية القديمة في أوائل الألف الثاني ق.م.

وفي بعض الحالات نجد أن أوجه الشبه ما بين المواضيع المعقدة في منطقة ما بين النهرين القديمة وما بين الفنون المسيحية هي أوجه شبه صارخة ولقد قبل مؤرخو الفنون المسيحية هذه الحقيقة. وإن نقاط الاختلاف ما بين المؤرخين ليست محصورة بالنفوذ البابلي بل بالقنوات التي وصل من خلالها هذا النفوذ من منطقة ما بين النهرين إلى بيزنطة وإلى أوروبا في العصر الوسيط.

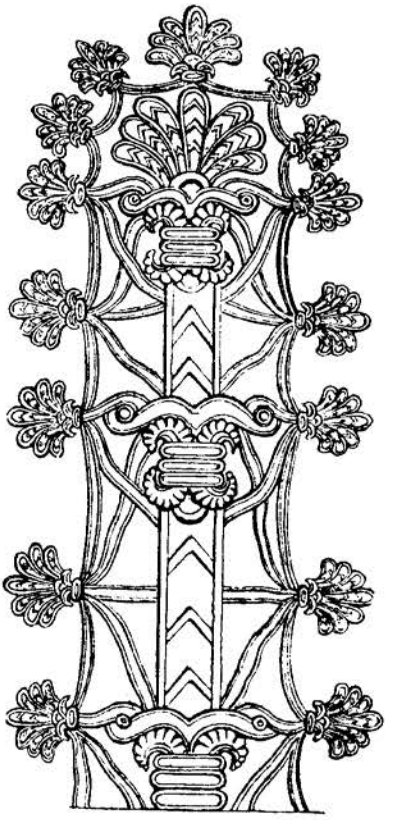

الشجرة المقدسة الأشورية

إن هناك رمزاً دينياً قد أتى دون شك من الشرق القديم هو شجرة الحياة. وقد وجدت هذه ضمن الفنون السومرية القديمة واستمرت من خلال تاريخ منطقة ما بين النهرين وظهرت بشكل بارز في الأفاريز الآشورية في الألف الأول ق.م (انظر اللوحة ٣٢) وتوجد المفاهيم الأسطورية لشجرة الحياة في سفر التكوين في التوراة ويتمثل هذا الرمز في السجاد الشرقي ويوجد في الفنون المسيحية منذ أقدم الأزمنة.

وهناك عدد من المواضيع القديمة التي كانت يقبلها مؤرخو الفنون الجميلة بأنها كانت موجودة في الفنون المسيحية ولكنها قد أخذت من منطقة ما بين النهرين القديمة من خلال البارتيب أو من خلال رهبان إيريش أو نصيبين.

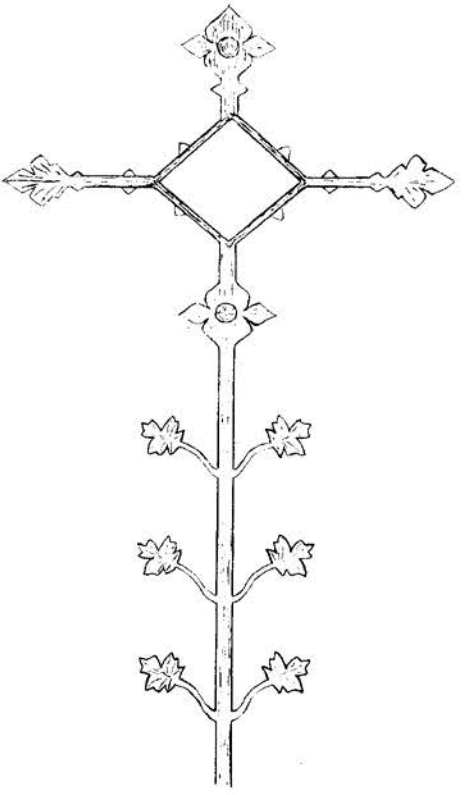

الصليب في شكل الشجرة المقدسة، بعد وجود لوحة تذكارية نحاسية في كاتدرائية انكليزية.

وقد ألحق عدد من هذه الرموز في منطقة ما بين النهرين القديمة بالإله تموز ولا يسع كاتب هذا الكتاب إلا أن يحذر القارئ من الاعتقاد أن الديانة المسيحية كانت تطوراً لطقوس تموز مع أن هذا هو رأي الميتراسبيين الذين عاصروا ونافسوا الديانة المسيحية الأولى هذا وقد قبلت المسيحية فكرة تموز وكونها رمزاً للمخلص يسوع المسيح الذي نهض وقام مرة ثانية.

إن (اللوحة ٥٧ب): تشير إلى تسجيلات مفصلة عن عملية الصلب وهي مملوءة بالمواضيع التي تظهر تشابهاً كبيراً مع المواضيع في منطقة ما بين النهرين وليس هناك من سبب يدعونا للافتراض أن هذه قد قدمت في عملية الإصلاح الديني التي حدثت في عام ١٨٢٥م. إذ هناك رمز الشمس (وهي الأشعة الموجودة في الصليب) ورموز القمر والنجمة فهي رموز لا يتطرق إليها الشك أو الخصام. بينما نرى الشيطان الصغير المجنح وهو يختطف روح اللص الذي لم يتب عن فعل الصوصية وهذه تظهر نقاطاً صارخة من أوجه الشبه بالشيطان في منطقة ما بين النهرين وبابل المعروف باسم بازوزو.

ليست المواضيع الفردية فحسب بل إن نقاط الأسلوب الظاهرة في الفنون المسيحية تدل على انتقال هذه النقاط من منطقة ما بين النهرين القديمة. وهناك ظاهرتان من ظواهر الأسلوب بصورة خاصة تندرج تحت هذه الفئة. الأولى هي استعمال المنظور العمودي أي وضع المناظر الخلفية فوق المناظر الأمامية. أما الثانية هي أن الصورة الرئيسية في المشهد تظهر بشكل كبير نسبياً مع الأشكال الأخرى التي تظهر أقل حجماً. وحتى الطريقة التي يتمثل بها المسيح في الفنون المسيحية تظهر أحياناً النفوذ في منطقة ما بين النهرين. إذ هناك صورتان مأخوذتان من الفنون البيزنطية. إذ يظهر المسيح بشكل ساحر من الشباب أما في الصور الشرقية فيظهر ملتحياً وغامضاً ذا جلال واحترام متميز في الآلهة القديمة في منطقة ما بين النهرين، وطبقاً لما ذكره الأستاذ كرويسويل Creswell وهو المؤرخ الثقة لفن المعمار الإسلامي، فإن بعض المآذن الإسلامية تظهر النفوذ من منطقة ما بين النهرين. والأهم

هي المئذنة الحلزونية في سامراء وفي العراق التي بُنيت فيما بين ٨٤٩ و٨٥٢م ولا تزال ماثلة للعيان والصورة إلى اليسار تظهر فكرة تقريبية عن مظهرها.

مئذنة سامراء

إن شكل هذه المئذنة مؤسس على شكل الزقورة مع أن مخطط البرج دائري بدلاً من أن يكون مربعاً وإن استعمال هذا الطراز الحلزوني قد انتشر من العالم الإسلامي إلى الصين حيث استخدم نفس الشكل المعماري فيما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي.

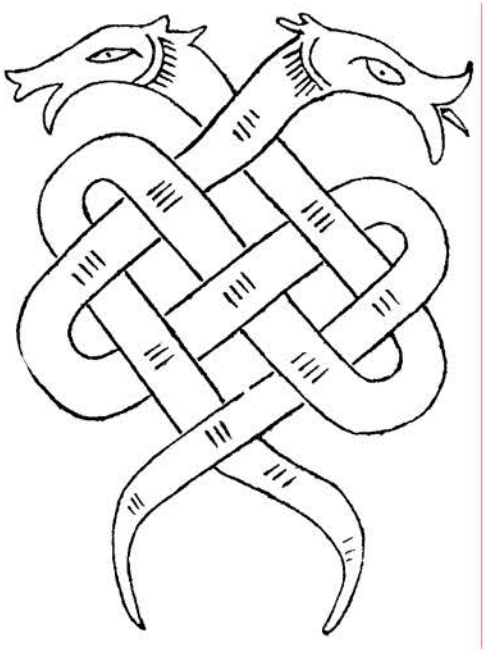

أفاعي مضفورة في الفن الإسلامي

لقد بذلت محاولة للإثبات أن كثيراً من المواقع والأشكال الموجودة في الفنون الإسلامية مأخوذة من فنون منطقة ما بين النهرين وعلى العموم فلا يجد كاتب هذا الكتاب برهاناً مقنعاً على ذلك (بسبب جهله للفنون الإسلامية) ولكن هناك بعض أوجه الشبه الصارخة وهي الثعابين المتشابكة التي ترى صورتها إلى اليسار (وهي مأخوذة من إحدى القواعد الإسلامية في القرن الحادي عشر م) وهي تذكرنا بشكل صارخ بالثعابين التي نجدها في (اللوحة ١١) التي تمثل غطاء مصباح من نهاية الألف الثالث ق.م في آشور.

إن رمز الثعابين المتشابكة قد نُقل من العالم القديم إلى العالم الحديث نظراً لأنه في المنظرين نجد رمزاً للشفاء، ففي بابل كانت صورة الثعابين المتشابكة مرافقة لصورة نين غنزيدا Mingizzida وهو ابن الإله الحامي لمراسم الشفاء بينما وبالنسبة للعالم الحديث فهي مرافقة لنظام الصيدلة.

الأدب والأشكال الأدبية والفولكلور

تعتبر الأسطورة جزءاً من الأشكال الأدبية التي تعود إلى منطقة ما بين النهرين القديمة، مع أن أسطورة الفيل والبعوضة وليست قصص التوتر والشدة، هي التي ينبغي أن تعتبر الجدة أو الأساس للأسطورة الإيسوبية. ويخبرنا السيد موندي المدرّس الأول للغة التركية في جامعة لندن، إن هناك قصصاً في الأدب التركي مشابهة لقصة الفيل والبعوضة وهي التي تمثل الفولكلور في الأدب التركي الحديث. هناك عدة مظاهر من أمثال وأقوال فولكلورية ومن المستحيل أن نبرهن أو ننقض البرهان أنه كان هناك انتقال للأفكار. ويمكننا القول إنه حيث هناك مادة مشتركة يمكن تفسير ذلك في أحد الشكلين: إما أن تكون نتيجة التشابه في أسلوب التفكير حينما يمثل هذا إشعاعاً ثقافياً كائناً لم يختفِ بعد، أو أن يكون نوعاً من تقاليد موروثة مستمرة ومباشرة. هذا ومن الممكن استنتاج حالات قليلة من التشابه مع أنه لم يتقدم أحد للإدلاء برأيه حول وجود أية علاقة عدا العلاقة الفطرية الفسيولوجية المتشابهة فيما بين البشر القدماء منهم والحديثين. وفي الفولكلور

الحديث هناك مبدأ مفاده أن الأحلام تفسر بالعكس وقد كان الآشوريون يعتنقون نفس الفكرة إذ يقولون ما يلي:

إذا صادف في الأحلام أن منح الإله بركته لشخص ما، فإن هذا الشخص سوف يعاني من غضب الإله.

أما إذا لعن الإله شخصاً ما، فإن هذا الشخص سوف يتمتع بوضع جيد تجاه الإله وسوف تكون صلاته مستجابة.

وفي المفاهيم التي كانت سائدة في منطقة ما بين النهرين نرى أن سلوك الحيوانات المختلفة مشابهة لسلوك البشر. فالنسر كان ملك الطيور وكما هو الحالة لدينا فهو مشهور بالطيران إلى مسافات عالية في الجو. أما الثعلب فهو مشهور بالخبث. وكان من المعتقد أن الثعبان لا يواجه الشيخوخة وهذا الاعتقاد لا يزال سائداً في بعض أجزاء أوروبا والمخلوق الذي يدعى فرس النبي التقي قد أوجد تصورات مشابهة لدى البابليين الذين دعوا هذا المخلوق باسم كاهن الشاكيو الريفي.

وفضلاً عن القصص ذات الأصل الذي يعود إلى منطقة ما بين النهرين (أي قصة الطوفان) التي وصلت إلينا عن طريق التوراة، فإن هناك قصصاً أخرى عرفناها من الأدب اليوناني وأشهرها قصة هيركوليس وجلجامش مع العلم أنه ليس هناك من أوجه تواز حقيقية حسب رأي مؤلف هذا الكتاب: وفضلاً عن شخصية هيركوليس نفسه، إلا أن هناك عدة مظاهر أخرى مأخوذة من علم الأساطير اليونانية التي تظهر كصدى لملحمة جلجامش. فهناك على سبيل المثال قصة التامبان والنبات الواهب للحياة الخالدة السحرية التي تذكرنا بقصة الثعبان الذي سرق النبات الواهب للحياة الخالدة وقصة الشيخ الذي يعود إلى صباه.

هذا وإن قصة العقرب العملاق الذي كان مسؤولاً عن موت أوريون بعد قيامه برحلة إلى مشرق الشمس، إنما تذكرنا بقصة الرجل العقرب الذي وجده جلجامش في أحد أطراف العالم وهو في طريقه إلى موطن أجداده.

وهناك أسطورة أقل شهرة في علم الأساطير اليونانية ربما كانت ذات علاقة بعيدة عن منطقة ما بين النهرين وهي القصة التي رواها هسيور حول أورانوس (السماء) فقد ضاجع أورانوس (السماء) غيا Geia (الأرض) ولكنه لم يسمح لها أن تلد التيتان الذي حملت به غيا. وأخيراً وعندما اقترب أورانوس من غيا قام أحد التيتان بإيعاز من غيا بإخصاء أورانوس بسكين من الصوان. وإن هذا العصيان ضد أورانوس عن طريق أداة صوانية. ربما كان صدى ضئيلاً لتلك الأسطورة البابلية حين تمرد الإله الصوان ضد الإله نينوترا لهذا فقد قضي عليه بأن يتقطع إلى رقائق. وهذه الأسطورة شأن الأساطير الأخرى المذكورة أعلاه) قد انتقلت من بابل إلى بلاد اليونان عن طريق الحثيين الذين تواترت لديهم إحدى الأساطير التي تذكر أن أحد الآلهة قد عض وقطع الأعضاء الجنسية التناسلية لأحد الآلهة الذي يشبه الإله أورانوس.

ولقد قيل إن الظاهرتين الأساسيتين اللتين تعتبران من أصول الفكر الغربي الحديث هما أن هذا الفكر هو فكر علمي وتاريخي. وأما منطقة ما بين النهرين فمع أنها قد قدمت لنا جزءاً كبيراً من التقنيات بالإضافة إلى أسس الرياضيات وعلم الفلك إلا أنه لا يجوز لنا أن نعطي لهذه المنطقة قصب السبق في إيجاد أسس علمية للحياة الحديثة.

ولكن هناك جديلة أو سلكاً مجدولاً متواجداً في تقاليدنا الحديثة في التفكير. ربما قد اشتقت من منطقة ما بين النهرين. وحيث يفتش المرء عن بداية التاريخ إنما يعتمد هذا التفتيش على مقدار ما يفهمه الإنسان من معنى للتاريخ، فإذا ظن المرء أن معنى هذا المصطلح هو الاهتمام بأصول وتطور المجتمع البشري، فإن من الممكن رؤية ومعرفة هذه التطورات من خلال الأساطير السومرية والبابلية القديمة. ولكن إذا كنا نعني من وجهة أخرى أن علم التاريخ يدل على شيء أكثر تخصصاً أي جلب الحاضر بشكل واعٍ للاتصال مع الماضي، وهكذا وكما ذكر الباحث الأميركي هـ. ليوي فإن التاريخ هو أصلاً من خلق الآشوريين مع أنه من المحتمل أنه قد نشأ وبشكل منفصل في مناطق أخرى خارج منطقة ما بين النهرين. وبالنسبة للنقوش

الملكية التي وجدت في منطقة ما بين النهرين فهي نقوش مخصصة لفن البناء والتي ظلت متواجدة في بابل حتى النهاية. ففي النقوش النموذجية كان الملك يذكر اسمه وألقابه وأناشيد لمدح الإله ثم إشارة موجزة إلى الزمن والظروف التي تم بها البناء وبعدها حسابات عملية البناء. وفي آشور وفي الألف الثاني إلى حوالي عام ١٣٠٠ق.م بدأ الملوك بالاهتمام بالزمن فلم يقدموا الحادث الذي سبق وأدى إلى المباشرة في عمليات البناء فحسب، بل ذكروا أيضاً خلاصة لحملات الملك العسكرية، وبعد ذلك أصبحت هذه الحملات ترتب بشكل نظامي طبقاً لسنوات حدوث الحملات. ومن ثم تطور هذا إلى كتابة الحوليات المعروفة لدى الحكام الآشوريين في الألف الأول. ولم تكن هذه الحوليات محددة بذكر الحقائق المجردة فحسب، بل لقد قدمت بعض الانتقادات لبعض الأعمال وملاحظات حول التغيرات السياسية وتصحيحات حول تاريخ حكم أحد الملوك أو خصائص أحد الأجناس فضلاً عن القضايا المرافقة للتاريخ مثلاً المظاهر الجغرافية والطوبوغرافية والاستراتيجية والتكتيكية المختصة بالحملات، ولهذا يمكننا اعتبار الآشوريين من المؤرخين الأوائل. ومع ذلك فإن إمكانية تأثر المؤرخين اليونان بشكل مباشر بالموقف الآشوري هي إمكانية حقيقية ومقبولة. ولكن يكفي أن نقول إن المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس ق.م قد سافر بنفسه إلى منطقة ما بين النهرين. مع أن آشور كانت قد اختفت في ذلك الوقت كوحدة سياسية، إلا أنه ليس من السهل اختفاء عادات التفكير. وهكذا فإن هيرودوتس ربما قد وصل من خلال الباحثين البابليين المتأخرين الذين قد ورثوا هذه التقاليد، إلى درجة الوقوع تحت نفوذ الفلسفة الآشورية لتفسير التاريخ.

هناك مواقف أخرى كثيرة وأعمال وطرق في التفكير يستطيع المرء من خلالها أن يلمس أوجه الشبه ما بين الحياة الحديثة وحياة سكان منطقة ما بين النهرين القدماء، ولكن قلما كان هناك باحثون لديهم معرفة كافية بالتاريخ الثقافي لتلك الفترة الطويلة المؤلفة من ألفين وخمسمائة عام التي كانت تغطي ذلك البرزخ الذي لم تحدث فيه سوى بحوث ضئيلة حول بعض النقاط الخاصة... مثلاً لقد ذكر أحد

الثقات في علوم القانون في حديث له مع مؤلف هذا الكتاب إن القانون الذي يعالج قضايا الرهن. إنما يعود إلى أعمال الأديرة والمرابين اليهود في العصور الوسطى ومن خلالهم يعود إلى الشرق الأدنى القديم. إذ هناك عدة حالات مشابهة تشير إلى كوننا لا نزال مدينين إلى منطقة ما بين النهرين. وحتى وبالنسبة للبنية التحتية لحياتنا اليومية والعائلية فإننا نجد أن هذه البنية قد تقولبت في إطار منطقة ما بين النهرين.

وبعكس الشعوب الأخرى بما فيهم اليهود حتى القرن الثاني عشر الميلادي والمسلمون حتى يومنا هذا فقد كان سكان منطقة ما بين النهرين القدماء (عدا الملوك) أحاديي الزواج أي كانوا يتزوجون زوجة واحدة فقط. وكما هو الحال في حضارتنا الغربية فقد كانت النساء أكثر حرصاً على وحدانية الزواج من الرجال.